علماء العرب

١١

الدميرى

عالم الحيوان .عاش فى القرن الميلادى الرابع عشر . وألف أهم كتاب فى التاريخ الطبيعى إلى زمانه فى العصر الوسيط ، هو كتاب "حياة الحيوان الكبرى" وضمّنه معارفَ علمية ، وأدبيات علم الحيوان ، من القصص ورؤى الأحلام ، والأشعار ، وتجاوز بكتابه هذا كتاب " الحيوان" للجاحظ ، وكتاب " عجائب المخلوقات" للقزوينى . إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

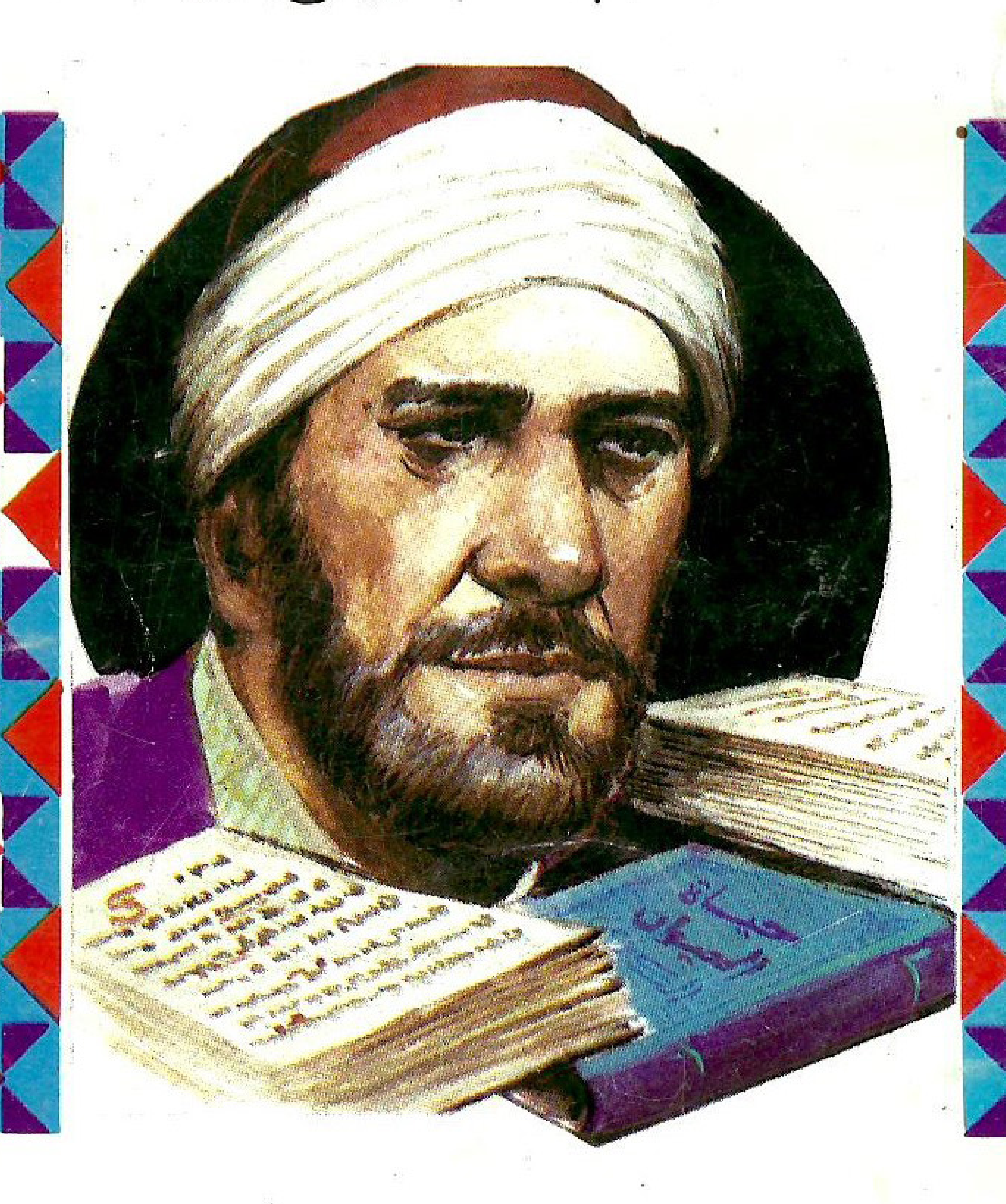
مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

علماء العرب

١١

الدميرى

عالم الحيوان



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب
(١١)

الدميرى

عالم الحيوان



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



فى دكان خياط

فى حارةٍ شعبية بحىّ الأزهر الفاطِمىّ ، بمدينة القاهرة ، كان يجلِسُ كلَّ نهار ، فى دكانٍ متواضع ، حائك ثياب ، اسمُه : « موسى بن عيسى الدُّمَيْرِىّ » .

وإلى جانبه ، كان ابنه الصغير محمد ، يُعاوِنُه فى لفْقِ الثياب ، بخيوطٍ مُلونة ، ويصل بمهارةٍ حبل القِطَان الملوّن ، بأطرافِ

الثيابِ الفاخرَة ، للعلماءِ والوجهاءِ ، من الجِبَبِ والقَفاطين والعباءَات والأصْدِرة ، وأمامَه كتابٌ مفتوحٌ يقرأُ فيه بشغَف ، وعيناه : عينٌ على الإبرةِ والخيطِ والنسيجِ ، والأُخرَى على كلماتِ الكتابِ المنسوخ ، والمدادُ يتألّق ويلتمِع ما يَزال ، على أوراقِه الصفراء .

وأحيانا ، كان الصغيرُ « محمد » يرفع رأسَه ، فى أوقاتٍ محدّدة يحْدسُها (يتوقعها) ، فيرَى الشيخَ « السُّبكى » الجليلَ المهيبَ الطّلعة ، عالِمَ الدينِ فى الفقهِ والحديثِ والتفسير ، مقبلاً من رأْسِ الحارة ، عائداً إلى بيتِه من صلاة ، أو مغادراً بيتَه ذاهباً إلى رُوَاقِه بصحْن الأزهر ، ليُلقِىَ درساً من دروسِه على طُلابه المتحلّقين حولَه .

واعتَاد محمد أنْ يظلَّ يرقُبَ الشيخَ « السّبكى » بحبّ ، متأملا قامتَه وهامتَه ، وقد توقّف عن الحِياكَةِ والقراءة ، وتجمدَتْ كُل حركةٍ فيه ، عدَا عينيه .

فى تلك اللحظات ، كان أبوه « موسى » ، ينظُر إلى ولدِه محمد ، ويعِى ما هُو فيه من رَغْبةٍ فى أنْ يكونَ عالما ، مثلَ الشيخ

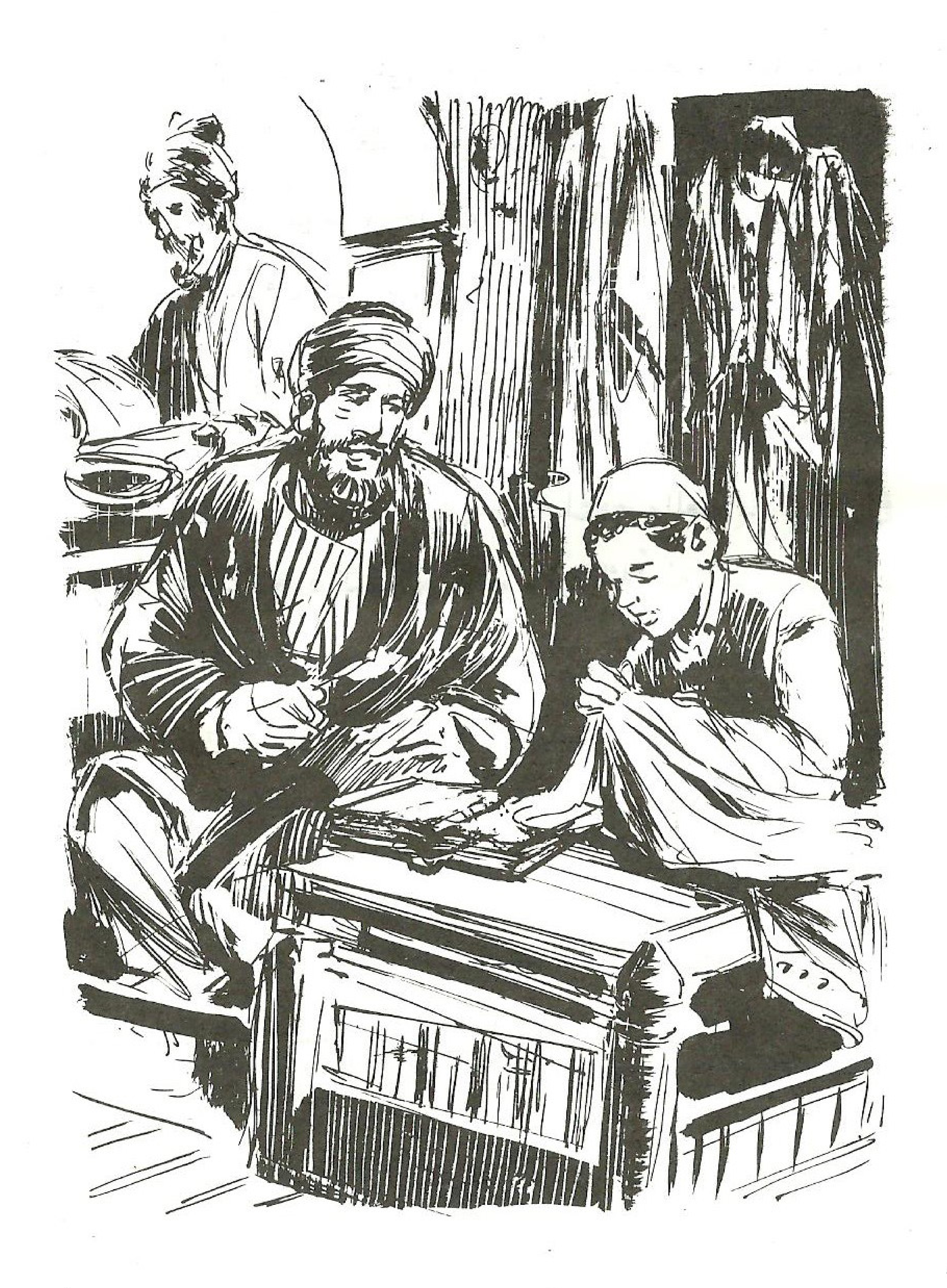
« السّبكى » ، ويودّ « موسى » لو استطاع أن يُعفِيَه من مُساعدتِه فى حياكةِ الثياب ، وينذِرَه لطلبِ العلم . ولاّ يجدُ الأبُ ما يقولُه لولدِه ، سوى كلماتٍ قصيرة ، يكررُها له بينَ يومٍ وآخر :

ـــ العِلمُ فى الكُتُب يا بُنَى.. والعلماءُ منذُ مئاتِ السنين ، يمارسُون حِرَفاً شتّى : الحياكَة ، وصِناعةَ الزّجاج ، والنِّجارةَ ، والتطريزَ .. حتى لا يكونُوا بحاجةٍ إلى روَاتبِ الحكامِ والأُمَراء ، ولا يخضعُ عِلمُهم لسلطان .

وذاتَ مرة أجابَه محمد على استحياء ، فقال :

ـــ ولكننِى أُوَاجه يا أبى ، فى الكُتُبِ التى أقرأُها من مكتبتِك ، أو أستعيرُها من ورّاق ، مَا لاَ أفهمُه من الكلماتِ والأفكار ، ولا أظُنّ أنّ أحداً سينيرُها لى ، سوَى عالمٍ مثلِ الشيخِ السّبكى ، فيأخذَ بيدِى إلى أنْ أضَعَ نفسِى على طريقِ الفهمِ وحدِى ، لكُتُبِ العُلماء .

وفكّر موسَى فى كلماتِ ولدِه ، فهُو على ما يعرفُه من العِلم ، وعلَى سهرِه الليلَ مع الكُتُبِ فى بيْته على ضوءِ قنديل ،



لا يستطيعُ أن يُجِيبَ ولدَه ، عن كلّ ما يسألُه عنه . ويُقدِّرُ تَعلُّقَ ولدِه بالشيخِ « السبكى » ، ويودُّ لو يسعَى إليْه فى بيته ، ليُحَدِّثَه فى أمرِ ولدِه ، ومحبته له ، ورغبتِه فى التعلّم على يديْه .

اللقـــاء الأول

وكان الشيخ « السبكى » ، يمر غادياً رائحا ، على دكانِ موسى ، يُلقِى بالتحيةِ لا يُجاوِزُها ولا يحفِلُ بتجديدِ ثيابه ، فما أكثَرَ ما يُهْدَى إليهِ من الثيابِ ، من أهلِ الجاهِ ، والأغنياءِ ، والمحبِّين لعلمِه ودرُوسِه فى صحْن الأزهر . لكنه ذاتَ يومٍ حمَل نَسيجَ عباءَةٍ ، وحَيّا « موسى » وولدهُ محمداً ، واجتازَ عتبة الدكانِ ، فنَهضَ الأبُ وابنُه فرِحَيْن لمقدمِ الأستاذ .

وعلَى مقعدٍ واطِئ جلسَ الشيخ « السبكى » ، وجلَس مُوسى وولده ، ورأَى الكتابَ المفتوح ، وتأمّلَ فى حياكَةِ محمدٍ الماهرةِ للأقطِنَة ، على أطرافِ الثياب ، وقالَ لمحمدٍ باسِما ، كأنه قد شَعَر بِحنينِه لطلبِ العلم ، وعجزِه ، لانقطاعِه فى طلبِ الرزق .

ـــ ستكونُ عالِماً يا بُنَىّ بمشيئةِ الله ، وسيُعينُك اللهُ لتجمعَ بيْنَ حُسْنيين : طلبُ العلم ، وتحصِيلُ الرزق ، فالعِلْم والعَمَلُ متلازِمَان ، وحروفُهما واحِدة ، لم يختلفْ أحدُها عن الآخر إلا فى تقديم حرفٍ على سواه .

ومسَح الشيخ « السبكى » بيدِ الحنانِ على رأسِ محمد ، وقال لهُ :

ـــ بارَك الله فيك يا ولدِى ، لأبيك ، وللعِلْم .

والتفتَ الشيح « السّبكى » لموسَى قائِلاً له :

ـــ إذا كانَ الليْل ، فى كلّ يوم ، فابْعث بمحمدٍ إلَىّ بعدَ أنْ تُغلِقَ دُكانتك ، لِيلْقَنى فى بيتى ، كى يقرأَ علىّ ، ويتعلّمَ على يَدَى ، فهو لَكَ يا مُوسى فى النهار ، ولى فى الساعات الأولَى من الليْل .

واندفعتِ الدموعُ من عينَىْ محمد ، ابن العشْرِ سنوات ، وانحنى ليقبّلَ يدَ الشيخ ، لكن الشيخَ سحَبَ يده بسرعةٍ من يدَىْ محمد ، وقال له :

ـــ لا ينبغِى لأحدٍ أن يُقبِّلَ يَدَ أحد ، سِوَى يدِ أبيه أو أمه ، أو ولدٍ صغيرٍ ، من محبةٍ وحنانٍ وإشْفَاق .

ونهَضَ الشيخُ « السّبكى » واقِفاً ، ليأخُذَ « موسى » مقاسَاتِ جسدِه : الكتفانِ ، والصدرُ ، والطولُ ، ليحِيكَ له عباءةً أنيقة ، جديرةً بعالمٍ جليلٍ بينَ العلماء .

واعتادَ محمدُ أن يلازمَ دُكانَ أبيهِ فى كلّ نهار ، وأن يلازمَ شيخَه « السّبكى » فى الساعاتِ الأولَى من الليل ، منذُ ذلِك النهار . يدرسُ على يديْه : الحديثَ ، والتفسيرَ ، والفقْه ، ويتمّ ، فى نفسِ الوقت ، حفظَ القرآنِ الكريم ، وأحاديثِ البُخَارِى ، و « موطَّأ » الإمامِ مالك . وأحياناً كان « محمدٌ » ينجزُ عمله فى دكانِ أبيه ، فيسْعَى مع صلاةِ العصرِ إلى الجامعِ الأزهر ، ليجلسَ فى رُوَاقِ الشيخِ « السُّبكى » بينَ الملتفِّين حولَه ، يُنصِتُ لكلماتِ الشيخِ ، وأسئلةِ السائلين ، ويشارِكُ فى الجَدَلِ والنِّقَاشِ ، ويدوِّنُ فى دفترِه ، بخطٍّ أنيق ، كلَّ ما يُسمعُ ويُقال ، والشيخُ « السّبكى » ينظرُ إليه بحبٍّ وحنَان .

أوقات الفراغ

وفى بعضِ الأيامِ ، كان « محمد » لا يجدُ عملاً فى دُكانِ أبيه ، يَحْدُثُ ذلِك معَ شهورِ الصيفِ فى كلِّ عام ، حينَ يعودُ

الطّلابُ فى الأزهرِ إلى قُراهم ومدنِهم فى دِلْتا مصرَ وصعيدِها ، وربّما فى أقطارِ العالَمِ العربىّ الأُخْرَى ، وحينَ يقِلّ الوافِدين من الطلاّبِ والعلماءِ على دكانِ أبيه ، طلباً لحياكَةِ العباءاتِ والثّيابِ والجِبَبِ والقَفاطِين . عندئذٍ ينْتهز « محمد » الفرصَ ، للتجوّل فى أنْحاءِ القاهرة ، يَرى المساجِدَ والقصورَ الشاهِقَة ، التى تركَها وراءَهم الفاطِميّونَ ، والأيّوبيّون ، وأمراءُ وسلاطينُ المماليكِ البحريّة ، أو يزُور البيمارِسْتانَات « المستشفيات » التى شيدُوها لِعلاَجِ الناس ، أو يطوفُ حولَ آثارِ الفراعِنَة بالجيزة ، وربما يسافرُ لزيارَةِ صديقٍ فى قريةٍ من قُرى الصّعيد أو الدِّلتا ، وقد يصحَبُ أباه لزيارةِ أهلِه الذينَ ينتسِبُ إليْهم ، فى قريةِ « دميرة » بإقليمِ الغربية .(محافظة الغربية الآن) .

ودائماً ، فى كلّ يوم ، كان « محمد » يسْعَى إلى حدائقِ الأزبكية ، يجلسُ إلى بحيرَتِها ، ويشاهِدُ القوارِبَ وبحارتَها تجوبُ أرجاءَها ، وعلى ضِفافِها القُصُور العالية ، والبيوتُ الصغيرَةُ الأنيقة ، والطيورُ تسبحُ فى مياهِ بحيرةِ الأزبكية ، بيْضاءَ ، وسوْداءَ ، ومتعدّدةَ الألْوان ، وبينهَا : البطُّ ، والأوزّ . وطيورُ النّوْرس ، تنقَضّ بين حينٍ وآخر على ما تراه من الأسْماك . وقد



يطيبُ لمحمدٍ أن يمشِى عبْرَ الطرُقَاتِ ، بينَ الناسِ ، والخيول ، حتى يصِلَ إلى الخليجِ عندَ جامعِ بنِ طولون بمئذنَتِه الملويّة ، ويسيرُ مع مجرَى العيون ، وكان يحملُ المياهَ ما يزال ، إلى أن يبلُغَ قلعةَ صلاحِ الدين ، وهناكَ يجلسُ ليرَى فرسانَ المماليك الجراكِسَةَ المحيطِين بها ، يحرسُون القلعة ، أو يتبارزُون حولَها بالسّيُوف والخنَاجِر ، أو يتنافسُون ويتبارَوْن فى إطلاقِ السّهامِ والنّبالِ ، وقذْفِ الرّماحِ ، ويرنُو بإعجابٍ إلى ثيابِ الفرسانِ

المَملوكية، الأنيقة المزركشة، المتعددة الألوان، والسلطانُ « الظاهِرُ فرَجُ بنُ برقُوق »، يُتابعُ، بينَ حاشيته، المتبارزين والمتبارين، ويمنحُ الفائزينَ الجوائزَ من الشّاراتِ الحربيّة، والدنانيرِ الذهبيّة. ويكونُ الليلُ قد أقْبَلَ بالظّلام، فيعودُ « محمد » عابراً الخلاءَ الفسيح إلى حىّ الأزهر، حيثُ يعيشُ فى بيْتِ أبيه ما يزال.

المفاجأة

وذاتَ عام، قال الشيخ « السّبكى » لمحمد:

ـ آنَ لك أن تَحُجَّ إلى بيْتِ الله. ولا تحمِلْ هماً للمَال، فسَوْف تكُونُ رِحْلتك معِى للحجِّ على نفقَتِى إنْ شاءَ الله، فإنِّى عنْكَ راضٍ.

ووَدّع « موسَى » الشيخَ السبكى، وولده محمداً، عنْدَ مَناخِ القافِلةِ التى سترحَلُ بالحجّاج فى ذلِكَ العَام. وركِبَ « محمدٌ » مع شيخِه فى هَوْدَج على ظهرِ جَمَلٍ يسيرُ فى مقدمَةِ القافِلَة، ومن حولِها كانَ الفُرسَان فوقَ صهَواتِ جيادِهم، يحرسُونها طولَ الطريق، عبْرَ الصحراءِ الشرقية وسيناء، فى

أرْضٍ متصَلةٍ من الصّحَارَى، فلم تكنْ قد شَقّتْها بعدُ هذِه القناة التى تصِلُ بيْنَ البحرَيْن: البحرُ الأحمرُ، والبحرُ الأبْيَض. ثم انحدَرت بهِم القافِلةُ إلى الجنوبِ فى أرضِ الحجَاز، إلى أنْ وصلَتْ إلى أُمِّ القرى، مكةَ المكرّمة.

كانَ مع الشيخِ « السُّبكى » عددٌ من الأساتِذَة العُلَماءِ، خرجُوا معَهُ من مِصْرَ للحجّ، وكانَ محمد قد درَس عُلومَ الدّين على أيدِيهم، وفوجِئ « محمد » بالشّيخِ السّبكى، يدعُوه ذاتَ نهارٍ، إثْرَ السّعْيِ بين الصّفَا والمرْوَة، ليمتَحِنَه مع العُلماء، فيما درسَه من عُلُوم اللغَةِ والدّين، طَوالَ سنواتٍ عديدة، بالجامِعِ الأزهرِ، فى القاهِرة.

واختارَ له الشيخُ السّبكى آياتٍ من القُرْآن، لتكونَ موضوعاً للامتحان، فى معانِى الألْفَاظِ، والآيَات، وما فِيهَا من أحكامٍ تشْريعيّة، وآراءٍ للفُقهاء، وفى صرْفِ اللغَةِ ونَحْوِها وبَلاغتِها، فى كلّ هذِه الآيات لفْظاً لفظاً، وجُمْلةً جملةً، وآيةً بعْدَ آية. وكانَ « محمد » يتدفّقُ فى الشّرْح، وفى الإجابَةِ الفوريّة عن كلّ ما يسْألُه عنْه الشّيُوخ. وكانَ عديدٌ من الحُجّاج يتحلّقُون حوْلَ

الشّيُوخ ، وينظُرون إلى « محمدٍ » بإعجاب ، وبلَغ « محمدٌ » الغَايَةَ من النّجاح ، فمنحه الشيُوخُ الإجازاتُ العِلْمية ، فى صَحْنِ الكَعْبة ، فى عُلوم اللغَةِ ، وعُلُومِ الدّين . وأَمْلَى الشيْخ السُّبكى نصوصَ هذِه الإجازَات ، ومَهَرَها الشيوخُ بتوقِيعَاتِهم فى المسْجدِ الحَرَام . وعانَقَ الشُّيُوخ « محمداً » واحِداً بعْد واحِد ، وأجلَسُوه بينَهم ، كعالِم بيْنَ العُلماء ، فقد صَارَ محمدٌ ، عَلَى غيْر موعِدٍ ، واحداً مِنهم ، وتقدّم الحاضِرون نحْوَه مهنّئِين ، وقالَ الشيْخُ السُّبكى لمحمد باسِماً :

— إنّك خيرُ من دَرسَ على يدَىّ يا محمدُ بن موسى فى الجامِعِ الأزْهَر . وكنتُ عازِماً على أنْ تكُونَ إجازتُك العِلْمية ، هنَا ، فى المسْجد الحَرَام .

ودعَا الشيخُ « السُّبكى » محمداً ليجلِسَ على مقْعَدِ الدّرْس بيْنَ النّاس ، ويُلْقِى عَليْهِم درْساً فى الدّين ، فى أىّ موضُوع يختارُه هُو ، أو يَراه .

وامْتَثَل محمدٌ لدعْوَةِ شَيْخه وأطَاع . وجَلس على مقْعدِ الدّرْسِ ، وتلاَ علَى الناسِ آياتٍ فى الحجّ ، وراحَ يشْرَحُها لهم . ويُعزّزها بالأحاديثِ الشريفة ، عن شَعائِرِ الحج ، وعنِ التجارةِ

فى موسِمِ الحجّ ، وعنْ تحرِيمِ الاحْتِكار لِلسِّلَع ، ورفْعِ الأسْعار ، على حُجاج بيْتِ الله ، مثلَ تحرِيمِهما فى دينِ الله ، فى كلِّ البلادِ ، والأزمَان .

ثم عادَ مع قافِلةِ الحُجّاج إلى القَاهِرة ، إثْرَ طَوافِ الوَدَاع ، وزيارَةِ مسجدِ رسُولِ الله .

فضول عالم

كان « محمدُ بنُ موسَى الدُّمَيْرى » قد بَلَغ من العُمْرِ خمساً وعشرِينَ سَنَة ، وَوَجد نفسَه أصغَر عالِمٍ فى العُمْر ، يجلِسُ إلى مَقْعَدِ درْسٍ فى صُحْنِ الأزْهر ، يُلْقِى درُوسا ، ويتحلّق حوله طُلابٌ للعلم . واختَار يومَيْن فى الأُسْبُوع ليحاضِرَ طلابَه فى الضّحَى . وفى غيرِ هذَا الوقت من النهار ، كان محمد يذهَب ليعاونَ أبيه ، ويوزّعَ ليلَه بيْنَ زياراتِه لرفاقِه وأسَاتِذَته من العُلَماء ، وبينَ القِراءَةِ فى غرفَةِ مكتبهِ ببَيْتِ أبيه الكبير ، وزوجَتُه الشابّة تتردّد عليه بينَ وقتٍ وآخَر ، لتقدّمَ لهُ شَراباً ، دافِئاً فى الشّتَاء : شاياً ، وقِرْفة ، وزنْجَبيلاً ، وبارداً فى الصّيْف ، من عصَائِرِ الفَوَاكه ، فى مواسِمِها المختلِفَة .



لكنّ « محمداً » وجَدَ نفسَه شغُوفا بطلبِ العِلْمِ ما يزال ، يطلبُه لدَى العلماءِ فى صحْنِ الجامعِ الأزْهَر ، وفى المدرسةِ المستنصرِيّة ، فليستْ كلُّ العلومِ عُلومَ لغَةٍ ودِين . مِثْلَما ينشدُها فى الكُتبِ التى يشترِيها من الورّاقِين . وكان يشترِى كتباً نسَخَها النسَّاخُون فى الطبيعةِ ، والكيمياءِ ، والفلَك والنّجُوم ، والتّاريخ ، والجغْرَافيا ، والنَّباتِ والحيوان . ووَجدَ محمد نفسَه يجلِسُ بينَ طُلابِ الحلْقاتِ العِلْمِية الأخرى ، فى علومِ الدّنْيا ، وكانَ صدرُ الأزهَرِ لهَا مفتُوحاً فى ذلِك الزّمان ، جلَس إلى تلاميذِ العالمِ « القَزْوينى » وأنصَت إلى ما يروونَه من حكاياتِه عن « عجائبِ المخلُوقات » فى الأرضِ وفى السّماء . وجلَس إلى العالمِ « ابنِ خلدُون » ، وكانَ قد وفَدَ إلى القاهرةِ فى زمنِ الظاهرِ برقوق ، واستَمعَ منه إلى مقدمَتِه الشهيرة فى عِلْمِ الاجْتماع ، عن العُمْرَان والحضارةِ والأجْناس والأقْوام ، وإلَى فصُولٍ من تاريخِه لأمَمِ العالمِ وشعُوبِه .

وتعجّلَ « محمدُ » المعرفَة ، بفضولِه البالغ ، فصارَ يجمعُ كُتُبَ هؤلاءِ العلمَاءِ من لدُن الورّاقين فى حىّ الأزهر ، وينسخُها له النسّاخُون ، من المكتباتِ الخاصّة لهؤلاءِ العلماءِ فى بيُوتِهم ،

حتى كوّنَ مكتبةً زاخرةً بالمراجِع والمصادِرِ فى شتّى علُومِ عصْرِه ، وبينهَا ، وفى الصّدارةِ منها ، كانتْ هذِه الكتبُ عن الحيوانَاتِ ، وعجائِبِ المخلوقاتِ ، وحكاياتِ الأقـدَمِين وأسْمَائِهم ، غن الإنْسَانِ ، والحيَوان .

زيارة فى الليل

ذاتَ ليلة ، زارَ الشيخُ « السّبكى » تلميذَه السابق ، « محمدُ ابن موسى » فى بيتِه ، وجلسَا معا يتحدّثَان . وشدّت كتبُ محمد انتباهَه إليها بكثرتِها ، ونظامِها ، وعناوِينِها ، على رفُوفِها بجُدرْانِ الغرفة ، وأركانِها ، فنهَضَ يتأمّلُها ، ويتصفّحُها كتاباً بعدَ كتاب ، وعادَ يجلسُ ضاحِكا ، قائلا لمحمد :

ـ متَى تجِدُ وقتاً لهذَا كلِّه يا محمد ؟ وكيفَ توازِنُ وقْتك بينَ عملِك كحائِك ، فى دُكانِ أبيكَ يرحَمُه الله ، وتدرِيسك لطُلاّبِك بالأزْهر ، و .. قراءَةِ هذهِ الكتُب .

فقال محمدُ لأستاذِه السّبكى :

ـ بتنظيمِ أوقَاتِى يا شيخِى ، من الصّبّاح إلى الصّبّاح ،



وأشْعرُ أنّ العمرَ مهما طالَ قصير ، لكى نعرِفَ المزِيدَ من العِلْم ، ولكَىْ أكتبَ ما أحلَمُ بكتابتِه ، ولم أكتبْه بعد .

وضحك الشيخُ « السبكى » :

ـ شرَحتَ فى الفلسْفة « ابنَ ماجَه » ، وصُغْتَ أرجوزَةً شعريّة نظمْتَ فيها أحْكامَ الشريعَةِ والفقْهِ ، يحفظُها الطلابُ الآن . وشرْحْتَ « مِنهاجَ النووِىّ » ، وصنّفْتَ كتابَك الطيِّب « النّجم الوهّاج » وإنّى لسعيدٌ بما ألّفْته وشرحْته يا بُنّى . فرِفْقا

بِصحّتِك وعينَيْك . وخُذِ الدّنْيا على مَهل . فالعُلُوم ، كالأرْزاق ، موزَّعَةٌ على الخلائِق ، وكلٌّ خُلِق لما هُوَ ميسّر له .

فقال محمد حالِماً :

— كل ما أرجُوه أن يُيسِّرَنِى اللهُ ، لتأليفِ كتابيْن جامِعَين آخرَيْن .

فقال الشيخ السبكى :

— أىّ كتابيْن هُمَا يا ولدى ؟ وفى أىِّ عِلْم ؟

فقال محمدٌ متردّدا ، وكأنّه يخْشَى أن يلُومَه أستاذَه ، على ما يقُولُه :

— أحلمُ يا شيخِى بتأليف كتابٍ جامِعٍ ، عن « تفسيرِ الأحلام » ، أجمَعُ فيه كلّ ما قالَه الأوائِلُ ، فيجِدَ طالبُها ضالتَه فى كتابٍ واحِد ، بدلاً من البحثِ عنْها فى كتبٍ عديدة ، قد يحصُل عليْها ، وقد لا يعرِفُ عنها خبراً .

فقالَ لهُ الشيخُ « السبكى » ، بوجهٍ لا بَسْمَة فِيه ، ولا غضَب :

— والكتابُ الآخر ؟

فقالَ محمد :

— كتابٌ عجِيبٌ يا شيخِى ، يتخايل لى عنوانُه الآن : « حياةُ الحيَوانِ الكبرى » .

عندئذٍ ضحِك الشيخُ « السبكى » ، وقالَ لمحمّد :

— كتابُك عن تفسيرِ الأحلام ، لا بأسَ به ، إذا كتَبْتَه ، وإنْ كنْتُ أعُدّه هُو ومثلُه رجْماً بالغَيْب ، يقومُ على الحدْسِ والظنِّ والتخمِين . لكنَّ الكتابَ الآخرَ يا محمد جلِيلُ الشأن . غيْر أنّنِى سأسأُلك : كيفَ ستكْتُبُ عن حَياةِ الحيوان ، ولا خِبْرَةَ علمية لديْك بعالَمِ الحيَوان ؟ هل ربّيْتَ حيوانَاتٍ ، وراقبتَ نشْأتَها ، وتطورَها ، وعادَاتِها ، وسُلُوكها من المولِدِ إلى المَمات ؟ وهل ارتحلْتَ فى طلَبِ المعارِفِ عن عالَمِ الحيَوان ، فى بلادِ الدّنيا ، مثلما ارتَحَل « ابنُ البيْطار » فى طلَبِ المعارِفِ عن عالَمِ النبّات ، فى الأندلسِ ، والمغربِ ، واليونَان ، وجزُرِ البحرِ ، والأناضُول ، والشّامِ ومصرَ ؟ كيف ستُقْدِمُ على مِثْلِ هذا العَمَل الشاق ، وأنتَ مُؤَهّل فحسْب لعلُومِ اللّغَةِ ، والدِّين ، والآدَاب ؟

فقال « محمد » :

ــ كُلُّ ما قلته حقٌ يا شَيْخِى . لكنّ ما سأصْنَعُه فى كتَابِى عن حياةِ الحيوان شىءٌ آخر . وهو شَبيه بما سوْف أصنعَه فى كتَابِى عنْ تفسِيرِ الأحلام . كلّ ما أرِيدُه فى كتابى ، أن أكتُبَ موسوعةً عن عالَمِ الحيوان ، مثلما فَعَل الجاحِظُ فى كتابه « الحيوان » .

فقال الشيخ « السبكى » بوجوم :

ــ فهِمْتُ يا بُنَى . فهِمْت . ستكتُبُ إذَنْ فى أدبيّاتِ علْمِ الحيَوان تجمَعُ كلّ ما قِيلَ من معارِف عن الحيوانَاتِ التى سمِعْنا بِها ، أو رأيناها ، وترتبها هجائيا .

وقالَ محمد ، مُكمِلاً ما يقولُه أستاذُه :

ــ وأيضا يا شيخِى ، أضمّ لها هذِه القصصَ والحِكايات المتناثِرةِ ، فى كتُبِ الحيوان ، ومراجعِ الأدَب ، وكتُبِ التّاريخ ، والرحْلاَتِ وقصَصِ الأسمار ، وأشعارِ الشعراء ، ونثْرِ الناثرين ، عن كل حيوان .

كان الشيخ « السبكى » شارِداً ، يفكّر ، فى هذِه الظاهرة التى يمثّلهَا له « محمد » الآن . وقال :

ــ عجِيبٌ أمرُ هذه العَصْر الذى نعِيشُ فيهِ يا بُنَىّ . إنّنِى أتذكّرُ الآنَ كلّ هذِه الملخصَاتِ والشّروحِ والمتُونِ والأراجيز والموسُوعَات ، التى تُوضَع فى زمانِنا ، فى كلِّ العُلوم . ولا أدْرِى : هل ذلِكَ كلُّه علامةً على نهايَةِ عصْرٍ ، أم بِدايَة لعصْرٍ جديدٍ لا يعلَمُه إلاّ اللّه . هل ما نفعلُه كعلماءِ فى عصْرِنا يا محمدُ خطأٌ أمْ صَوَاب ؟ هل شُلَّتِ العُقُول فى عصْرِنا ، وكفّت عن إبداعِ الجدِيد ، فى العِلْم ، والأدبِ ، فى الدينِ والدّنيا ، مثلما فعَل ابنُ خلدون ؟

فقالَ محمد للشيخ « السبكى » :

ــ اللهُ وحدَه يعلمُ يا سيّدى . ولا أعرِفُ سِوَى أنّنِى مدفوعٌ بقوة فى داخِلِى ، لكتابَةِ كتابِى : « تفسيرِ الأحلام » و « حياةِ الحيوانِ الكبرى » .

وسادَ بينَ الاثنين الصّمت ، ثم تغير مجرَى الحدِيث . ثم ودّع الشيخُ السّبكى تلمِيذه ، وسار معه محمد ، عبْرَ الدروب ، إلى أن بَلَغ به بابَ دَارِه . كان الشيخُ قد أبطأتْ خُطاه ، وكأنّه على وَشْكِ الودَاع للدنيا .

الأستاذ والتلميذ

بينَ تلاميذِ « محمد » فى الجامعِ الأزهر ، كان الشابّ « المقريزى » الذى قُدِّرَ له ، فيما بعد ، أنْ يصبحَ واحداً من أعلامِ المؤرخين فى تاريخِ أمّة ، مثلَ « الطّبرى » ، و « ابن إياس » من قبلِه ، ومثلَ « الجبرّتى » ، و « الرافعّى » من بعْدِه . ولحَظَ « محمدُ » مَيْلَ تِلميذِه « المقريزى » للتاريخ وحوادِثِه ، وقدرَتِه على البحث ، وجَمْعِ الموادّ العلميةِ له . واختارَ محمدُ تلميذَه « المقريزى » ، ليُعِينَه فيما هُوَ بسَبيله . وصحبَه معَه إلى بيتِه . وكانَ المقريزى سعيداً بهذا الاختيارُ له دُون سِواه من رِفاقِ الدرْس .

وراقتْ مكتبةُ « محمدُ » للمقريزى . وجَدَ فيها ضالّته من كُتُبِ التاريخِ التى يُؤْثِرُ القراءَةَ فِيها ، حينَ يَفْرَغ من درُوسِه الأخرى فى عُلومِ اللغة والدين . وقالَ له محمد :

— أمّا كتابى عن « تفسير الأحلام » ، فدَعْ أمْرَه لِى . لكنّ هذَا الكتابَ الآخرَ ، عن حياةِ الحيوان ، فأنا بحاجَةٍ إلى

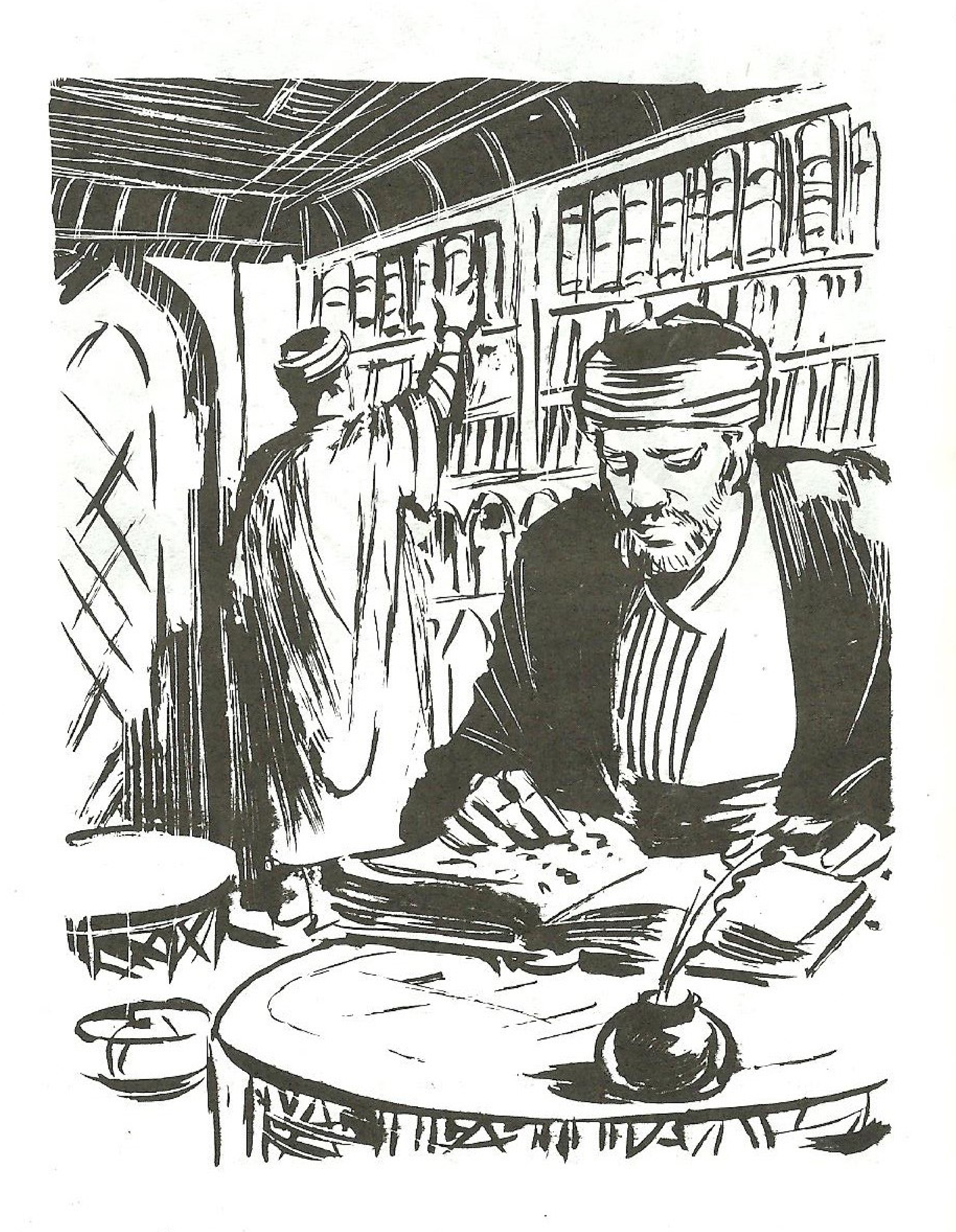
معاونَتِكَ لِى فى جمْعِ موادّه . وسوفَ نتعاوَنُ معاً ، ودع التّنْظِيم والصياغَة لِى .

وفرِح « المقريزى » بثِقَةِ أستاذِه به ، ووجدَها فرصةً للتدرُّبِ على يَديْه ، فى منْهجِ البَحثْ ، وتنظِيمِ المعارفِ تحتَ عناوِين ، أو فِي فصولٍ وأبوابٍ .

وانشَغَل ، « محمد الدميرى » ، بوضعِ كتابه فى « تفسِيرِ الأحْلاَم » . حتّى إذا أتَمّ إنجازَه ، كانَ « المقريزى » قد جَمَعَ لهُ أسْماءَ الحيوَانِ ، والمعارِف المتيسِّرَة فى زمَانِه عن كلّ حيَوان ، من هذِه الكتُبِ العدِيدةِ فى مكْتبَة الدّميرى .

وجلَس « محمد » ينظّمُ هذِه الموادّ فى أوْراق ، بلغَتْ عدتُها ألفاً وتسعاً وستّينَ وَرَقة ، فى رأسِ كلٍّ منها اسمُ حَيوان ، من هذِه الحيوانَاتِ فى المملكَةِ الحيوانيّة ، وبينهَا حيوانَاتٌ مفترسَة ، وحيوانَاتٌ أليفَة ، وحشَرَاتٌ مِنْ حشراتِ الأرْض ، وحيوانَاتٌ بريَّة ، وحيوانَاتٌ بحرِيّة ، وعلى رأسِها ذلك الكائِنُ الحىّ ، الناطِقُ ، المفكرُ ، الضاحِك ، الباكِى : الإنسان .

وأخَذَ محمد يصُوغُ المعارِفَ عن كلّ حَيوان ، ثم ينتقِلُ من



هذه المعارف ، إلى قصّ الحكايات ، عن ذلك الحيوان ، وبينها خرافات وأساطير .

وأحياناً كانَ الدّميرىّ يُملِى عَلَى تلميذهِ « المقريزى » أجزاءً من كتابه . وكان المقريزى يَدْهَش من أستاذه الدُميرى لأنّه كان فى أحيانٍ كثيرةٍ يُمليه من الذاكرة ، عن أسماءِ حيوان بعينه فى لُغَةِ العرب ، وعنْ الآراءِ الفِقْهيّةِ فى حلّ أكْلِ هذا الحَيوان أو حُرمَتِه ، أو إباحَة قتلِهِ أو تحريمه ، بل إنّه قد يُقدّم عنه تفسيرًا وتأويل رُؤْيا ، لمن يرَى ذلكَ الحيوانَ فى المَنَام . أو يسوقُ ما وردَ عنْهُ من شِعْرٍ ونثر فى أدب العرب ، عبْر عُصُورِ الجاهلية والاسْلاَم .

لكن الدميرى ، حينَ كانَ يتحدّث عن الجانبِ العلمىّ ، لحيوانٍ بعينه ، كان يلتزم بما نقلته الكتُبُ السَابقة للأُمَمِ القديمة ، عن ذلك الحيوان .

جلْسة عمل

فى كُلّ يوم ، كان « الدميْرى » يُملِى على تلميذه بِضْعَ صفحات ، حتى بلغ حرفَ « الثاء » . وقدم الدميرى للمقريزى



صفحة جديدة ، فى رأسِها ، كانت كلمة « الثعلب » ، وقال :

ـــ اكتب يا بنى : « والثعلبُ حيوانٌ جبَان ، ضعِيفٌ بين حيوانَاتِ الغَاب ، لكنّهُ يُعوِّض جُبْنه وضَعْفه بالمكْرِ والخدِيعَة . فإذا أرادَ صيْدَ حيوَانٍ أضعَفَ منه ، اعترَضَ طريقَه ، وألْقى بنفْسِه ، وقد نفخَ بطْنَه ، ورفَع قوَائمَه . ويقترِبُ ذلِكَ الحيوَان ، فيظُنّ الثعلَب ميّتاً ، ويطُوفُ حولَه بفضُول ، وعندئذٍ يثِبُ عليهِ الثعلَبُ الماكر ، ويصِيده بيُسْر » .

ويأخُذُ الدميْرِى بعْدَ ذلك ، فى سَرْدِ العِلاَجاتِ الطبّية الشعبيّة التى تكونُ علاجاً لبعضِ الأمراض ، من بعض أعضاء ذلك الحيوان .

نصيحة الأستاذ

وقال له « المقريزى » ، وهو يضعُ القَلَم ، ويحرّك أصابِعه كَىْ يُريحَها من كثْرةِ ما كتَب :

ـــ إنّك تحيرنى يا أستاذِى . كيفَ تتذكّر كلّ هذِه المراجِع والمصادِرِ وأنتَ تملِى علَىّ ما تمليه ، وكُلّ هذِه الأسماء التي تبلُغُ عدّتها المئاتُ والألُوفُ من العلماءِ والكتاب والشعرَاء ، وتذْكُر ما قالُوهُ عن كلّ حَيوان .

فقال لهُ الدّميْرى :

ـــ يا بُنَىّ . من نَذَر نفْسَه للعِلم والمعرِفَة ، لا ينْسَى قطّ ما دَخَل رأسَه من المعَارِف ، والكتابَاتِ والأشْعَار . ومن سِمَةِ العَالِم أن يكونَ أميناً ، فينْسِبَ كلَّ قوْلٍ أوْ رأْيٍ لصاحِبِه ، وإلا كانَ سارِقاً ، مثَل من يسرِقُ المالَ ، سوَاء بسواء . وما سمِعْتَه ، وما سوْف تسمعُه ، مما أملِيه عليْك ، هو ثمرةُ

قِراءاتِي عشراتِ السّنين . وما مِنْ كتابٍ ألّفه عالِمٌ فى شُهُور ، أو سِنِينَ ، إلا وقَدْ أعدّ نفسَه لتأليفه ، من حيثُ يدْرِى ، أو لا يَدْرِى ، أضْعافَ تلك الشّهُورِ أو السّنِين ، بالقراءةِ والتفْكيرِ . فتذكّرْ ذلِك حينَ تكتُب تاريخَ زمانِنا هذا يوماً . وكُنْ صادقاً فيما ترْوِيه . فرُبّ حادِثَةٍ يخترِعُها مؤرّخ فى التاريخ ، تُضَلِّلُ كلَّ النّاسِ من بعدِه آلافَ السّنين ، ويحمِلُ وِزْرَها مَنْ كتبَها بعدَ رحيلِه عن الدُّنْيا ، إلى أَبَدِ الآبِدِين .

ودُهِش المقريزى لِفطْنَةِ أستاذِه ، وقال :

ـــ كيفَ عرفتَ يا سيّدى ، أنّنى أُعِدّ نفسِى للكتابَةِ فى التارِيخ .

فتبسّم « الدميْرى » وقالَ له :

ـــ انظرْ إلى أىّ إنْسَان ، وراقِبْ ما الّذِى يقرأُ فيه ، وما الّذِى يتحدّث به إلَى الآخرين ، ولسَوْف تعرِف مَنْ يكون . وأنتَ بقراءَة التاريخ مُولَع ، وبأحداثِ زمَانِنا مُغْرَم . نرجُو أنْ يوَفّقكَ الله ، لتكُونَ واحداً من المؤرِّخين العِظام ، الصّادقين .

النجاح

وحينَ انتهَى « الدميرى » من تأليف كتابه عن « حياةِ الحيوان » توّجَهُ بهذَا العنوان : « حياةُ الحيَوان الكبرى » . وقدّمَه لورّاقٍ صديق ، كانَ أثيراً لديْه بينَ الورّاقين ، وقال له :

ـــ يا أبا الحسن . هذا الكتابُ هُوَ خيرُ ما ألّفْته مِنْ كتب . وأحسَبُه هُوَ الذِى سيعِيشُ من بعْدِى ، بينَ عشرَاتِ الكتُبِ المأثُورة من كُتُبِ التّراث الباقِية .

وتصفّح الورّاق الخبِيرُ كتابَ الدميْرى ، وأدرك لتَوّه أنّه سيكُونُ واحداً من الكتُب الناجِحة ، شأْنُه ، فى مَجَالِه ، شأنُ كتابِ « الأغانى » بينَ كتُبِ القِصَص والأسْمار ، التى يعشَقُها الصّغار والكِبَار ، فهو عِدّةُ كتُبٍ فى كِتَابٍ واحِد ، ففِيه الأدبُ والشعبيّات ، والمعارِفُ العلميّةُ اللّغَوِيّة ، والدّينِيّة ، والطِّبّية ، وألوانٌ من رُؤَى المنَامِ فى عالَمِ الحيَوان .

ودفَع الورّاقُ للناسِخِين بكتابِ الدميْرى ، فنُسِخت منه المئاتُ فى زمَانِه بعدَ المئات ، والكلّ يسأَلُ الورّاق عن نسخَةٍ من هذَا الكتاب ، مثْلما يسألُونَه عن نُسخةٍ من كتابٍ مثلِ

كتابِ « الأغانِى » لأبى الفرج الأصْفهَانى .

اقْسم بيننا بالعدل

كان « الدميْرى » قد جاوَزَ الستّينَ من العُمْر ، حينَ أقْبل عليْه ذاتَ ليلة حفيدٌ من أحفادِه ، وقالَ له :

ــ جَدّى . احْكِ لى حكاية .

وشرَع الدميْرى ، وقدْ أجلَس حفيدَه فى حِجْرِه يقصُّ عليه حكَاية ، قال :

« فى الغَابَة ، تصادَق أسَدٌ ، وثعلَبٌ ، وذئْب . وجاءُوا يوماً ، فخرجُوا للصيْد معاً . وتعاوَن الثّلاثَةُ معاً ، فصادُوا : حماراً ، وظبْياً ، وأرْنباً ، وقالَ الأسَدُ للذّئب :

ــ اقْسِمْ بينَنَا بالعْدلِ يا صاحِبى . مَنْ يأكُل الحِمارَ ؟ ومَنْ يَأْكُل الظبْى ؟ ومن يأكل الأرْنَب ؟

وعَوَى الذّئبُ فَرحاً . وقالَ للأسَد :

ــ أنْتَ أكبرُنَا وسَيِّدُنا ، والحمارُ أكبَرُ ما صِدْناه اليَوْم ، فالحمارُ لكَ لتأكُلَه . وأنا أكبَرُ من الثعْلبِ ، فالظبْى لِى لآكُله

والثّعلَبُ أصغَرُ منّى ، فالأَرْنَبُ له ليأْكُله . وهذِهِ هِىَ عدالَتُنا ، نحنُ الذّئاب .

وغضِبَ الأسَد من قِسْمَةِ الذّئب . فالظبْىُ ألَذّ لحماً ، وأشْهى مذاقاً مِنَ الحِمار . ولذلِكَ احتَجَزه الذّئْبُ لنَفسِه فى القِسّمَة . وَوَثَب الأسَدُ على الذّئْبُ ، وقطَعَ رأْسَه عَنْ جسَدِه . ثم قالَ للثّعْلَب :

ــ أَيّها الثعلب . الذّئْبُ جاهِل بالقِسْمَة ، ولم يكُنْ عادِلاً مَعِى .. ولا مَعَك .

فقالَ لَهُ الثعلَبُ الماكِر :

ــ نعَمْ يا سيِّدَ الغَابَة . وسأكُون عادِلا فِى قِسْمَةِ الصّيْدِ .

فقالَ لهُ الأسَد :

ــ كيفَ ، ونَحْنُ اثنانِ ، وما صدناه ثلاثة ؟ اقْسِم يا صاحبى بينَنَا بالعَدْل ، أَوْ ..

فقالَ لهُ الثعلب مقاطِعاً :

ــ يامَلِك الغابَة . القِسْمَةُ واضِحَة : الحِمَارُ لغَدائِك ،



والظَبْى لعشائِك .. أما الأرْنَبُ ، فهو لَكَ أيضاً تأكُلهُ بين الغَدَاءِ والعَشَاء!!

فضَحِك الأسَد ، وقالَ للثعْلَب :

ـ أَحْسَنْت القِسْمة يا صَاحِبى . من عَلّمك حُسْنَ القِسْمة ؟

فوثَبَ الثّعلَبُ مُبْتَعِداً ، وقالَ :

ـ عَلّمَنى حُسْن القِسْمةِ ، رأْسُ هذَا الذئب ، الّذى فصلْته عن جَسَدِه » .

وقال الدّمَيْرى لحَفيدِه :

ـ أَعَرَفْتَ مَغْزَى القصّةِ يا صغيرِى . حِينَ تكبُرُ ، لا تُصَاحِب أحداً لهُ طبْعُ الأسَد ، ولا أحَداً لهُ طبْع الذّئْب ، و ..

لكنّ الحفيدَ الصغِيرَ كانَ قد نَامَ فى حِجْر جَدّه . وأقبلَتْ ابنَةُ الدميْرى لتحمل صغيرَها ، عائِدَةً بهِ مع زوجِها إلى بيتِها فى حىّ الأزْهَر .

الصوت والصّدى

ربح الورّاقون والنسّاخون فى حَياةِ الدّميرى الذهَب والفِضّة من كتابه : « حياةُ الحيَوانِ الكُبْرى » ، وأُعْجِبَ به عُلَماءُ عصْرِه ، وعَامّةُ أهْلِ زمانِه ، على السّواء . وراحُوا يُؤلّفون منه المختصَرات ، بينهَا مختصرٌ للدمَامِينى بعنوان : « عينُ الحيَوان » ، ومختصَرُ للسيُوطى بعُنْوان : « ديوان الحَيَوان » . وكانَ أول هذهِ الكتبِ العربية عن عالَمِ الحيوان كتابُ « الحيوانِ » للجاحظ ، قبْلَ ستّةَ قُرون .

وفِى إيران ، عُنِى الفرسُ بكتَابِ « الدميْرى » هذا فنَقلُوه إلى لُغَتِهم الفارسيّة ، وزوّدُوه برسُوم الحيَوانَاتِ ، وقصَص الحيوانَات ، وطبعُوه طبعَةً شعبيّة .

وفى آسْيا الصغرَى ، اهتمّ التركُ بنقْلِه إلى اللغَةِ التركية . واحتَفَى به الانجليزُ كأهمِّ كتاب فى العَصْرِ القديمِ والوسيط معاً ، عنْ عالَمِ الحيوان . وكواحِدٍ من أهمّ الكتُبِ الفريدَة ، بينَ كتُبِ التّراثِ العربيّة ، والآثارِ الأدبيّة والشعْبية ، فنقلُوه إلى اللغَةِ الانجليزيّة .

وكان كتابُ « حياةِ الحيوانِ الكُبْرى » للدمَيْرى خُطْوةً أولَى وكُبْرَى ، فى عِلْم « التاريخ الطبيعِى » . تلتْها خُطْوَاتُ عِظَام فى القُرُون التالِية ، أثمرتْ عِلْمَ الإحْيَاء الحدِيث .

*

فى القاهِرة ، وُلِدَ الأديبُ العالِمُ « كمَالُ الدين » وهذا لقبُه « محمدُ بنُ موسَى بن عيسَى » وهذَا هُوَ اسْمُه ، « الدميرى » ، وتِلْكَ هِىَ شُهْرَتُه ، وكانَ مولِدُه عامَ سبعمائةٍ وخمسين هجريّة ، ألفٍ وثلاثمائةٍ وتسعةٍ وأربعين ميلادِيّة .

وفى القاهِرة ، وَافَى الدميْرى أجلُه ، فلقِىَ وجه ربّه عامَ ثمانمائةٍ وثمانيةٍ هجريّة ، ألفٍ وأربعمائةٍ وخمسةٍ ميلادِيّة .

وخرجَ علماءُ الأزْهر ، والمساجدِ الأخْرَى ، وصفْوَةُ أهْلِ القاهِرة ، وسكانُ حىِّ الأزْهَر ، فى ودَاع الدميْرى أودَعُوه ترابَ دَارِه ، وأقامَ لهُ الأهلُ والأتْباعُ ضريحاً ومسجداً ما يزَالُ قائِماً إلى يومِنا ، بعد ستّةِ قُرون . فلقَدْ أخلَص الدميرىُّ الخياطُ حياتَه للعِلْم ، وعاشَها زاهِداً متَصوِّفا ، حريصاً على الحَجّ فى كلِّ عام ، حريصاً على مَوَدَّةِ الأهْلِ والأصْحَاب ، حريصاً على

إمتاعِهم والتَّسْرِيَةِ عنهُم ، وإثَارَةِ حسِّهم ودهْشَتِهم بالدّنيا ، وبعالَمِ الأحْيَاء فى هذِه الدنيا ، من دوَابِّ البْحرِ والبرّ ، وطيورِ البحرِ والبَرّ ، وحشراتِ الأرْض ، وهوامِّ الفضاء .

وبيْن مودّعِى الدميرى ، كانَ الخيّاطُون فى القاهِرَة فهو شيخُ لطائفَتِهم ، مثلمَا هو مُعَلِّم لهُم . وفى مقدمَةِ مودّعِيه كان مؤرخُ عصرِه « المقريزى » .

ورقَد الجسد ، وبقِيت الذكرَى شاخصةً وماثِلةً ، فى ضريح ، وفى كتاب مطبوع بالقاهرة ، وعلى هامِشِه كتاب « عجائب المخلوقات » للقزوينى .



رقم الايداع
٣٩٣٧ / ١٩٨٩

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر